مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

المخلّص في الديانات الوضعية القديمة

The Savior in the ancient postural religions

بلخير عمراني*

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، (الجزائر)، b.omrani@crsic.dz

تاريخ ارسال المقال: 2021/06/19	تاريخ القبول: 2021/08/08	تاريخ النشر: 2021/09/01

***المؤلف المرسل**

الملخص:

الاعتقاد في وجود مخلص يأتي في آخر الزمان لينصر المعتقد، وليمكن لأتباع الديانة، لم يكن معتقدا جديدا، أو ظهر في النصوص المقدسة للديانات السماوية، بل إن الباحث في الأديان يجد أنها عقيدة تداولتها الديانات القديمة، وكان لكل واحدة منها مخلّصها الذي تبشر به وتنتظره، وتعقد الآمال على ظهوره. وتراه المعين لها في صراع الخير والشر، والمنقذ عند الاضطهاد. ويأتي هذا البحث ليبيّن جذور الاعتقاد في المخلص في الديانات الوضعية القديمة كالزرادشتية، والبوذية، والهندوسية، ... وليوضح النصوص التي يستدلون عليها، ومواصفات هذا المنتظر.

الكلمات المفتاحية:المخلّص ; الخلاص ; البوذية ; الهندوسية; الزرادشتية.

Abstract :

Belief in the existence of a savior who will come at the end of time to help the belief, and to enable the followers of the religion, was not a new belief, or appeared in the sacred texts of the heavenly religions. Rather, the researcher in religions finds that it is a belief that the ancient religions circulated, and each of them had its savior who preached and awaited him, Hopes are placed on his appearance. And you see him appointed to her in the struggle of good and evil, and the savior when persecution. This research comes to show the roots of belief in the Savior in ancient postural religions such as Zoroastrianism, Buddhism, Hinduism, ... and to clarify the texts they infer on, and the specifications of this expectant.

Keywords: Savior; salvation; Buddhism; Zoroastrianism;, Hinduism.

مقدّمة:

عقيدة المخلص أو المنتظر الذي يظهر أو يعود في آخر الزمان لنصر العقيدة والتمكين للمؤمنين، والقضاء على الآلام والشرور التي عانى منها الناس قرونا عديدة؛ ليست عقيدة مقتصرة على الديانات السماوية (كما اصطلح عليها اليوم) بل هي مترسخة في أغلب الديانات الوضعية إن لم نقل كلها، إذ لم تخل ديانة من عقيدة انتظار المخلّص أملا منها في زوال عنائها وانتصار عقيدتها.

يقول محمد الناصر صديقي: "إن أي باحث في أنثربولوجيا العقائد وخاصة في تاريخية المنقذ المهدوي ليس في غنى عن إطلالة على ماضي هذه الفكرة عند الشعوب السابقة وما نسجته لشخصية المنقذ المخلّص في أدبياتها،

ومن هذا المعين الإنساني نهلت جميع المجموعات المظلومة ملامح تراثها العقدي في صراع الخير والشر، النور والظلمة، الحق والباطل، ... وهذا ما تجسد لنا في عديد النصوص عند مجمل المجموعات الإنسانية والإسلامية، التي احتاجت إلى بطل منقذ عندما ضاقت بها السبل ورسمت صورة غلب عليها الطابع الأسطوري لمنقذها، نسجها خيال أولئك المضطهدين في كل جماعة بشرية وليس عند المسلمين فقط"[1]

وسأحاول في هذا البحث أن أشير إلى وجود هذا الاعتقاد في الديانات الوضعية القديمة، وسأذكر ما استطعت الوصول إليه مما توفر من مراجع، ولعلي أقتصر على ديانة قدماء المصريين، وعلى الهندوسية، والبوذية، والزرادشتية، لأن البحث في كل الديانات الوضعية القديمة مما لا يتسع له هذا المقام.

إشكالية البحث:

يرمي هذا البحث إلى الإجابة عن الإشكاليات الآتية:

- هل عرفت الديانات الوضعية القديمة عقيدة الخلاص؟ وكيف كان شكل الخلاص حسب معتقدهم؟
- من هو المخلّص الذي انتظرته كل ديانة؟ وهل كان المخلص واحدا أم أنهم أكثر من واحد؟
- ما هو الزمن الذي يظهر فيه المخلّص؟ وما هي الأعمال المرجوة منه؟

منهج البحث:

يقتضي منا البحث أن نستعمل المنهج الوصفي لبيان كل معتقد حسب ما ورد من المصادر العقدية والتاريخية التي تحدثت عنه، وكذا المنهج الاستقرائي والتحليلي، لاستخراج ما يمكن أن يدل على هذه العقيدة وتتبع تطورها، وكذا المنهج التاريخي وهو مهم لقراءة ما يخدم البحث وفق مقتضيات هذا المنهج.

الدراسات السابقة:

من خلال البحوث والدراسات التي توفرت لديّ فقد وجدت بعض الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، أذكر منها:

- كتاب الباحث فالح مهدي، البحث عن منقذ دراسة مقارنة بين ثماني ديانات، وهو بحث قيم، بذل فيه المؤلف جهدا في تقصي هذه العقيدة وتتبع تطورها، وبيانها عند كل ديانة، لكنني حاولت أن أضيف إليه ما استطعت بحثه، خاصة وأن الكتاب قد صدر سنة 1981، ولا شك أن الكثير مما كتب وألف بعده يضيف الجديد.

- كتاب الباحث محمد الناصر صديقي، فكرة المخلص في الفكر المهدوي، وهو دراسة عالج فيها المؤلف هذا الموضوع، لكنه كان كتقديم مختصر لما أراد الخوض فيه، وهو الفكر المهدوي عند المسلمين.

- أطروحة دكتوراه للدكتور علي بن صالح بن محمد المقوشي، المسيح المنتظر بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى، وقد بحث فيها عقيدة المخلّص في الديانات الوضعية والديانات السماوية بحثا يستحق التنويه والتقدير، لكن بالنسبة للديانات الوضعية فلم يتناول سوى الهندوسية والبوذية.

- مقال للدكتورة: مروفل كلثوم، فلسفة الخلاص في المشروع البوذي، تناولت فيه عقيدة الخلاص في الديانة البوذية، لكنها ركزت على الخلاص الفردي دون الجماعي، وكذا حصرت البحث في البوذية، مما يجعل بحثنا أوسع.

هذه أهم الدراسات المتعلقة بالموضوع، والتي استفدت منها وأضفت عليها، من أجل الوصول إلى إجابة عن الإشكاليات المطروحة سابقا.

1. عند قدماء المصريين:

لما تحققت وحدة مصر الأولى سنة 4240 ق.م انبعثت الدولة المركزية وأصبح لها سلطان ملموس على عقول الناس وسيطرت على تصرفاتهم ومتجهاتهم. وتجسدت هذه القوة في ذاتية الملك الذي غدا إلها ذا أهمية بالغة في حياة الناس.

فالتطور السياسي قد أثر تأثيرا ضخما في تطور البلاد الديني، كذلك تأثر الدين بالتطور الاجتماعي..

.. وفي ظل اتحاد البلاد الثقافي حوالي 3200 ق. م انبعثت فكرة الحكم عن طريق القسط (أي العدالة والحق = معات المصرية) وأصبحت دعامة الحكم المصري.[2] ولذلك كان الانحراف عن هذا المبدأ، وتحول البلاد إلى الفساد يبعث في الناس الرغبة في الرجوع إلى العدالة، ويجعلهم يحاولون تحقيق ذلك إما من خلال الثورات، أو الأمل في ظهور شخص يخلصهم من الظلم.

"ويطالعنا في هذا المجال أنه لما تداعى النظام الذي فرضه بناة الأهرام تحت ثقل الأعباء التي تحملها المجتمع المصري، عجز عن صد غائلة البدو فتقوضت دعائم الحكم الصالح واستبيحت أركان العدالة. فكان أن انبعثت طائفة من المفكرين الاجتماعيين ألمعوا إلى الفساد الذي يسود البلاد، لكنهم لم يفقدوا الأمل في ظهور "مخلص" ينقذ البلاد من الفساد الذي تردى فيه الحكم.

وبالأحرى؛ ظهرت في كتابات الحكماء المصريين أولى بوادر عقيدة المخلص (العقيدة المسيانية) ومدارها الإيمان بظهور شخصية قدسية على الأرض تعيد إلى الأرض السلام وتقر العدالة بعد أن ملئت جورا وفسادا وفقرا. ولعل دورة النيل مرجع هذه العقيدة: لأنه يعود بعد إمحال ويؤوب جالبا معه الخيرات والبركات بعد جوع وعطش.[3]

ولقد رصد بعض الباحثين أولى الأفكار المتعلقة بالمنقذ والمخلّص في عهد ما قبل السلالات، إذ كان الشمال (الوجه البحري) والجنوب (الوجه القبلي) في مطاحنات مسلحة لمدة طويلة .. والظاهر أن مقاطعة الدلتا كانت أقوى من مقاطعة الصعيد وان أطماع ملوك الأولى كانت ممتدة بهم الى توحيد مملكتهم بمملكة الصعيد. وقد قامت

بالفعل عدة اتحادات لكنها سرعان ما سقطت، وربما نستطيع أن ننسب أسباب سقوط هذه الاتحادات – إضافة الى أطماع الملوك – إلى أطماع الكهنة الذين كان لهم نفوذ متزايد في كلتا المملكتين.

ويظهر أن الظروف المتشابهة بكلا الجانبين (من حيث الدين واللغة والعادات المتقاربة) قد دفع برجل عظيم " ربما يكون منسيا (منا) الذي ذكره هيرودتس، والذي يكون هو نفسه إلها حيث يظهر لنا في لوحة نارمر"، إلى التفكير بتوحيد البلاد وحكمها بنفسه، بعد أن لاحظ ظروف البلاد وتزايد الصراع بين الفريق العسكري الذي بدا يزداد نفوذه في المراكز المهمة من جهة، وسلطة الكهنة من جهة أخرى، وتردي حالة البلاد كما يحسن أن نفترض من ازدياد الفقر والبؤس اللذين يعانيهما الشعب .. كلها كانت ظروفا ملتهبة كالنار تحت الرماد.

إن هذا الصراع الذي من المعقول افتراضه بين الرؤساء العسكريين ورجال الدين جعلهم والناس من ورائهم يترقبون الرجل الذي يقودهم الى توحيد البلاد، وربما تنبأ أحد من الكهنة بقرب ظهور منقذ للبلاد يوحد كل المقاطعات وينقذها من الصراع المرير.

وفعلا فقد ظهر منقذ جبار وقائد عظيم استطاع أن يجمع رؤساء الجيش ويوحد بينهم ويتفق معهم على الاعتراف به ملكا .

وبذلك يكون أول زعيم استطاع أن يوحد وادي النيل تحت حكم واحد.

إن هذا العمل الذي قام به هذا الرجل كان مثارا للعجب والافتخار عند أهل مصر مما دفعهم إلى احترامه وتبجيله « ونظروا إليه بقدسية لأنه عمل أمرا لم يتمكن من إنجازه الملوك من قبله»[4]

وقد أسس هذا الملك الأسرة الأولى التي اعتبر فيها الملك هو الإله، ومن الأسباب التي دعت الشعب لكي يطلق عليه لقب الإله إضافة إلى توحيده البلاد، الاطمئنان والرخاء اللذان سادا في عهده فكان النيل يفيض بانتظام فلا جدب ولا قحط في البلاد وتوقف الحروب الذي أدى إلى انتعاش البلاد ورفاهها.[5]

وفي عهد الأسرة الخامسة ومع ازدياد البؤس والشقاء الذي عانت منه طبقات من المجتمع، ومع غزو الأجانب للبلاد وعموم الضعف في النظام، وجد الناس أنفسهم أمام ثورة وفوضى تعم البلاد، وكان لكل مقاطعة نظامها الخاص في مكافحة النظام.

إن هذه الفوضى والبعثرة استمرت أكثر من قرنين إلى أن تحقق هدف الثورة على يد رجل من صفوف الشعب هو « أمنحات » الأول مؤسس الأسرة الثانية عشر، فكان منقذا للبلاد من الفوضى والاضطراب، فضرب على أيدي حكام الأقاليم المستبدين وأشاع العدل، وجعل الموظفين خداما للشعب، وكان من نتائج هذه الثورة إنزال الملك من برجه المقدس قليلا..

.. والحقيقة أن مجيء هذا المنقذ المخلص للبلاد قد سبقه نبوءة من قبل العراف « نفر رهو » إذ يقول « سيأتي ملك من الجنوب اسمه "أميني" وهو ابن امرأة نوبية الأصل، وقد ولد في الوجه القبلي وسيتسلم التاج الأبيض فيوحد البلاد، وينشد السلام في الأرض (يعني مصر) فيحبه أهلها .. وسيفرح أهل زمانه وسيجعل ابن الإنسان يبقى أبد الآبدين، أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة، فقد أخرسوا أفواههم خوفا، والآسيويون يقتلون بسيفه، واللوبيون سيحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون إلى نصائحه، والعصاة إلى بطشه، وسيخضع المتمردون للمل الذي في جبينه»[6]

أما المنقذ الآخر والذي أثار جدلا كبيرا، فهو الإسكندر المقدوني، الذي حكم مصر بعد استيلاء الفرس عليها، وقد أحيط بكثير من الأساطير والأفكار الدينية، جعلت الباحثين يختلفون في تفسير ما وصلنا عنه.

لقد استولى الفرس على مصر سنة 525 ق.م، وقاموا بإهانة المعابد المصرية، وتعمدوا فيها الخراب والتدمير، مما أدى إلى حدوث انتفاضة عليهم لم يكتب لها الدوام، وبسبب الفشل الذي أصابهم لم يفكر المصريون في الانتفاضة مرة أخرى فقد كانوا ينتظرون منقذا من الخارج.

لعبت المعتقدات المصرية دورا مهما في إبقاء الشعب في حالة انتظار ذلك بنبوءة خرجت من معبد "آمون" مقتضاها أن الفرس يسيطرون وأن الملك الوطني سيعود ثانية.[7]

تذكر بعض المصادر القديمة أن الشائعات تواترت بأن الاسكندر لم يكن ابن فيليب، وأن أمه ألمبياس حملت به من ثعبان مقدس مما يدل على أن أصله سماوي يعود إلى الإله آمون[8]، مما جعل المصريين يتقبلونه حاكما عليهم عندما هزم الفرس، إلى الحد الذي نصبوه فيه فرعونا، إذ نجد اسمه في النقوش المصرية مشفوعا بثلاثة من الألقاب الرسمية التي كان الفراعنة يحملونها منذ غابر الزمن.[9]

ولأجل إثبات نبوءة كهنة "آمون" عمد أول ما حطّ رحاله في العاصمة المصرية ممفيس (منف) إلى إظهار احترامه للديانة المصرية، فعمل على تقديم القرابين في معبد "فتاح" للآلهة الفرعونية والعجل المقدس "آبيس"، ورسم نفسه فرعونا طبقا للطقوس والأعراف الدينية المصرية، وذهب إلى أكثر من ذلك فقد توغل في الصحراء قاصدا الحج إلى معبد "آمون" في واحة "سيوة"، وكان يضارع في أهميته أعظم معابد الوحي الإغريقية.[10]

وبهذا اعتبر الاسكندر ابن الإله الأكبر آمون، لأن الاسكندر كان فرعونا ولأن كل فرعون منذ حوالي عام 2000 ق.م. كان يعتبر رسميا ابن الإله آمون رع .. ومنح الاسكندر السيطرة على العالم بأسره، لأنه كان جزءا من طقوس الإله آمون أن يسأل الكاهن الإله باسم فرعون السيطرة على العالم بأسره فيمنحه الإله هذه السيطرة.[11]

وهل كان من باب الصدفة أن تعلن ثلاثة مصادر للوحي في أوقات متقاربة أصل الاسكندر السماوي وتتنبأ ببسط سلطانه على العالم كله ؟ أم أن الاسكندر كان يستهدف الفوز بذلك من مصادر الوحي، وأن هذه

المصادر بحكم ما جبلت عليه من الاستجابة عادة إلى رغبات أصحاب السلطات لم تخيب رجاء الاسكندر؟[12] يبقى الأمر مثار خلاف بين الباحثين.

2. الهندوسية:

الاعتقاد في نزول المخلّص في آخر الزمان يعتبر في الديانة الهندية أحد طرق الخلاص التي يؤمن بها الهندوس، فهناك خلاص خاص بالنفس الانسانية، يفسرونه بعقيدة "الكارما"، وعقيدة "تناسخ الأرواح"، وعقيدة "الانطلاق".

أما الخلاص العام الذي يشمل كل المؤمنين ليخلصهم من الشرور والآلام، ولينقذ الأبرار ويقضي على الأشرار؛ فهو مرتبط بالإله فشنو. فعقيدة الخلاص عندهم جعلتهم يؤمنون بأن النفس البشرية لكي تتخلص من شرورها وآثامها وجب عليها أن تسلك أحد المسالك: إما "الكارما" أو "تناسخ الأرواح" أو "الانطلاق"، والكارما تعني التأكيد على العمل والقيام به خير مقام، وتقوم هذه الفكرة على أن كل عمل يأتيه الانسان له نتيجة حتما، وإن كل شيء يختبره الإنسان في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرر الأعمال التي يأتيها في الوجود السابق. وقد قسم كتاب "منو سمرتي" الأعمال إلى ثلاثة أقسام، الأول ينبعث من القلب والثاني من العقل والثالث من الجسم.

وإن الإنسان لا يحاسب على أعماله في هذه الحياة، إنما في حياة ثانية " ويغدو المرء جزاء أعماله السيئة، التي ارتكبها بجسمه في خلقته الثانية جمادا، والتي ارتكبها بلسانه طيرا أو حيوانا، وينحط إلى الفرق السافلة نتيجة ارتكابه سيئة بعقله"[13]

أما تناسخ الأرواح فهو رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضي في جسم آخر. وسبب التناسخ أو تكرار المولد هو (أولا) أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد، و(ثانيا) أنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين لابد من أدائها، فلا مناص إذا من أن تستوفي شهواتها في حيوات أخرى، وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة.[14]

أما "الانطلاق" فهو حالة الروح التي بقيت صالحة في دورات تناسخية متعاقبة ولم تعد تحتاج إلى تناسخ جديد فيحصل له النرفانا (النجاة) من الجولان وتتحد الروح بالخالق.

... فإن الهدف الأسمى للحياة عند الهندوس هو التحرر من رق الأهواء والشهوات، فإن الروح إذا خرجت من جسم تنتقل إلى جسم آخر وهكذا تظل متنقلة من جسم إلى جسم حتى يحصل لها "النرفانا" وهو العودة إلى أصلها الذي صدرت عنه، والاتحاد والاتصال به وهو "برهما".[15]

... و"النرفانا" هي أعلى درجات وأسمى غايات لكل هندوسي وبوذي، ولا يصل أحد إلى هذه المرتبة إلا بعد أن يقضي على جميع شهواته الحيوانية، ورغباته المادية والجسدية، ويكون في النهاية في مرتبة "لا شيء أريده" (wantlessness).[16]

أما الخلاص الجماعي الذي يتمثل في نزول مخلّص كلما ازداد الظلم وحلّ الشقاء، وكثرت الشرور فإن الهندوسية تؤمن بتجسّد الإله في شخص يكون هو المنقذ، وهو ما يسمى عندهم بالسنسكريتية واللغات الهندية بعقيدة " أفتار" والتي تعني النزول. وفي الاصطلاح عند الهنادك: نزول الرب إلى الأرض لإصلاح الناس بصورة البشر كما جاء في كتاب كيتا[17]

يقول كرشنا: "من أجل إنقاذ الأبرار، وإفناء الأشرار، ومن أجل إعادة إقامة شرعة الدين أهبط بنفسي دورة بعد أخرى"

ويقول أيضا: "حيثما يوجد انحراف في الممارسات الدينية ويزداد الإلحاد أهبط بنفسي"

ويقول أيضا: "إذا تزلزل الحق أمام الباطل، وغلب الفساق على الصالحين، نزل (بهكوان) أي الإله إلى الأرض لإحقاق الحق وحفظ الصالحين"[18]

يعتقد الهندوس أن الإله فشنو الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة للإله (براهما، فشنو، سيفا)[19] وبحكم وظيفته في الحفاظ على الوجود فإنه هو من يتولى الخلاص؛ بتجليه في شخصيات متعددة نسبت إليها أساطير كثيرة.

يذهب التراث الهندوسي إلى وجود عشرة تجليات رئيسية لفيشنو، الإله الأعلى والرب الحافظ للكون. وكل تجلّ من هذه التجليات، باعتباره شكلا من أشكال فيشنو، هو تجلّ لبراهمان، الواقع المطلق، أو الحقيقة النهائية. وكل تجلّ منها كذلك يجسد سماحة فيشنو وكرمه، الذي يظهر بوضوح في جهود هذه التجليات لإيقاع الهزيمة بالشر والإعلاء من شأن الخير.

.. والتجلي العاشر، كالكين kalkin على جواده الأبيض، فسوف يكون الهبوط التالي لفيشنو، وهو هبوط سيحدث في نهاية العصر الحاضر. وهو نوع من المخلص، جاء ليعاقب الأشرار، وليكافئ الأخيار، مطلقا العنان لعهد جديد من القداسة والنعيم، وليس من الواضح ما إذا كان هذا التجلي مستلهما من التعاليم البوذية الخاصة ببوذا المستقبل أو من الأفكار الزرادشتية عن المخلّص الذي سينتصر على الشر.[20]

ويرى الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي أن بعض المحققين الهنادك ذهبوا في عقيدة الأفتار إلى اتجاه آخر أشبه بالنبوة والرسالة، وقالوا إن الكتب الهندوسية تنص على بعثة أربعة وعشرين رسولا، ظهر منهم الجميع إلا الرابع والعشرين، وهم ينتظرون ظهوره، وقد سموا النبي المنتظر بأسماء منها:

1- "كلكي": بمعنى الذي يطهر الناس من الذنوب والآثام.

2- و"نراشنس": يعني الإنسان المحمود.

3- و"جكت كرو": يعني معلم العالمين.[21]

وقد حددوا فترة ظهور هذا النبي المنتظر بأن يكون في زمن (كل يوج). أي الفترة الأخيرة التي بدأت منذ آلاف السنين وهذه بعض البشارات به:

1- "في ذلك الوقت في قرية (شامبهل) عند رجل اسمه (وشنوياش) صاحب قلب رقيق يولد في بيته (كالكي). وشامبهل: قرية الأمن – وشنوياش: عبد الله –كالكي: مطهر الذنوب والآثام".[22]

2- "يولد (مهارشي كلكي) في بيت (وشنوياش) من زوجته (سومتي)" وكلمة (سومتي) معناها: صاحبة السلامة والأمن، ولعلنا نرى ربطا بين هذا المعنى وبين اسم أم النبي صلى الله عليه وسلم (آمنة).[23].

3- "سوف يأتي معلم روحاني مع رفقائه الكرام، ويشتهر بين الناس باسم (محامد)، ويستقبله الأمير قائلا: يا ساكن الصحراء، هازم الشيطان، صاحب المعجزات، بريئا من كل شر، قائما على الحق، خبيرا ومجسما في معرفة الله، ومحبا له، سلام عليك، أنا عبدك أعيش تحت قدميك"[24].

وحسب من يعتقد هذا الاعتقاد فإن المخلّص لم يظهر بعد، غير أن الملاحظ لما ذكر سابقا من نصوص ومن معاني الكلمات يجدها تدل على نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم فكلكي: التي تعني الذي يطهر الناس من الذنوب والآثام تنطبق على الرسول صلى الله عليه وسلم، ونراشنس بمعنى الإنسان المحمود تنطبق عليه أيضا، و"جكت كرو" بمعنى معلم العالمين أيضا تنطبق على عالمية رسالة الإسلام، وكذا قرية الأمن تدل على وصف مكة كما أن "سومتي": صاحبة السلامة والأمن تقارب اسم أم النبي صلى الله عليه وسلم آمنة، وهذا ما يجعل الباحث يتساءل إن كانت هذه بشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم تضمنتها كتب الهندوسية منذ القدم، أم أنها مما أدرج أيام حكم الإسلام للعالم من باب ما قاله محمد عبد السلام الرامبوري: كانت الأمة الهندية متسامحة في كل ما يعرض عليها من الأفكار والمعتقدات، تكثر عندها الآراء والابتكارات، وكان الناس حيارى مشرفين على القبول والمعاضدة.[25]

ويرى الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي أن هذه البشارات غير صحيحة الثبوت لوجود احتمالات عدة في نسبتها الأولى، ومنهم من يقول إنها أدخلت في العهد الإسلامي إرضاء للمسلمين ولاختلاف علماء الهندوس في مواقفهم نحوها.[26]

3. البوذية:

تعتبر الديانة البوذية منبثقة عن الديانة الهندوسية التي تميزت بميزة الطبقات؛ أعلاها طبقة البراهمة التي خصت نفسها بكثير من الامتيازات، "وفي ظل هذا النظام استبد البراهمة وظهر عسفهم وطغيانهم أحيانا، وضج الناس من استبداد البراهمة وجورهم وتمنوا ظهور قائد روحي جديد يخلصهم من ظلم البراهمة وطغيانهم؛ وكانت طائفة الكشتريا أكثر الطوائف إحساسا بهذا الظلم لشدة ما بين الطائفتين من تنافس كنتيجة لقرب المسافة بينهما..

.. كان هناك سخط من كل الطبقات ضد استبداد البراهمة، وكانت الكشتريا أكثر الطوائف سخطا، ثم كانوا – لقوتهم – المسؤولين عن مقاومة طغيان البراهمة وجبروتهم، وهكذا دبّ في نفوس أبناء الكشتريا إحساس بضرورة الثورة، وقوي هذا الإحساس على مر الزمن، حتى جاء القرن السادس فإذا بالإحساس يصبح واقعا؟ فهبت ثورتان كبيرتان في وجه الهندوسية، يقود مهاوبرا إحدى هاتين الثورتين، ويقود غوتاما ثانيتهما"[27]. وتزعم مهاوبرا ديانة الجنتية أما بوذا فقد تزعم الديانة البوذية.

ويلاحظ على أفكار هذين المعلمين، بل على أفكار جميع المصلحين والفلاسفة الهنود أنها دارت في الفلك الهندي ولم تتجاوزه، فالجميع يرون أن الحياة الدنيا تعاسة، والعيش فيها ويل، والتغير والزوال أساس الحسرات وأصل الآلام والجميع يقولون بتكرار المولد، وبالزهد وسيلة..[28]

وعلى هذا فإن هناك تشابها في بعض العقائد بين البوذية والهندوسية وقد تختلف الأسماء لكن المسميات لا تختلف، ومثال على ذلك فإن عقيدة الانطلاق التي تكلمنا عنها سابقا في الهندوسية هي نفسها عقيدة "النرفانا" في البوذية، وهي وصول الإنسان إلى حالة الانعتاق من الشهوات الدنيا والميل إليها، والتخلص من رغبات النفس وإحساسها بنوازع الخير والشر.

ومن خلال هذه العقيدة يقول البوذيون إن طريق خلاص النفس لا يتم إلا بالنرفانا والتي يصل إليها الإنسان بتشديد كبير على ضبط النفس والإنجاز الفردي، لأن الهدف هو الإرهاتية Arhatship (مرحلة القداسة) التي ترمز إلى انطفاء نيران الشهوة والتوق لدى الفرد، ويمثل هذا الاتجاه في البوذية مدرسة الثرافادا، أما مدرسة المهايانا فإن الهدف لديها هو أن يصبح المرء (بوذيستفا)، أي كائنا مناط اهتمامه الوحيد هو مساعدة الآخرين على القضاء على المعاناة،.. وكنتيجة لذلك حدث اعتماد أقل على الجهد الفردي، وضبط النفس الفردي، واعتماد أكبر على الإيمان ببوذا والبوذيستفات، الذين سيقدمون المساعدة في قهر المعاناة. وبمرور الوقت دعمت الميتافيزيقا المختلفة هذه التأكيدات المختلفة في إطار البوذية، حيث دعت ميتافيزيقا نزعة الشك الفلسفية، ونزعة السلطة المطلقة، الخلاص الكلي الذي يمثله المثل الأعلى للبوذيستفا (بوزذا المنتظر) في المهايانا[29]. ومن هنا نجد أن البوذيين يعتقدون بأن بوذا كان بإمكانه أن يبقى في مرحلة السعادة النهائية لكنه فضّل مساعدة الآخرين ليدلهم على طريق الخلاص[30].

ويبدو أن مفهوم النرفانا في البوذية قد مر بمراحل تاريخية، فقد كان مفهومها عند بوذا أول الأمر أنها الاندماج في الله والفناء فيه، ولكن أفكار بوذا تغيرت بالنسبة للتفكير في الله، فقد تخلى عن القول بأن هناك إلها، بل أنكر وجود الإله .. وبناء على هذا الإنكار لم تعد النرفانا الاندماج في الله، بل اتخذت لها معنى جديدا أو قل أحد معنيين متلاحقين هما:

1- وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه، والقضاء على جميع رغباته المادية، أو بعبارة أخرى فناء الأغراض الشخصية الباطلة التي تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة مروعة، ويصبح المقياس هو: كل من شاء منا أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها.

2- إنقاذ الإنسان نفسه من ربقة الكارما، ومن تكرار المولد، بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر.

وبناء على المعنى الأول يصل الإنسان إلى النرفانا وهو حي، وبناء على المعنى الثاني ترتبط النرفانا بالموت وبالتخلص من هذه الحياة على ألا يعود لها.[31]

وتأتي نظرية الفداء في البوذية لترسخ معنى الخلاص الجماعي؛ إذ دون مخلّص سيخضع الأفراد دوما إلى نتائج أعمالهم. وهذا المخلّص هو بوذا شاكيمني للطور الكوني الحالي، يليه بوذا ميتريا الذي سيغدو سيد العهد المقبل والذي سيسبق مجيئه زوال العالم.[32]

ويبدو أن هناك أكثر من بوذا سيظهر وليس منقذا واحدا، "فبوذا نفسه أشار في آخر حياته إلى أنه ليس أول البوذات ولا آخرهم، لذا نرى البوذيين حتى الآن ينتظرون ظهور حكيم من بينهم يأتي ليخلص ويهدي"[33] ويعبر ول ديورانت عن كثرة المنتظرين في الديانة البوذية بقوله: "والبوذية الجديدة الأسطورية التي جعلت من بوذا إلها .. ملأت أجواز السماء ببوذوات منتظرة وقديسين من أشباه بوذا"[34] وهو ما نقله غوستاف لوبون أيضا[35]، ولذلك وصف ول ديورانت البوذية بأنها في تطور مستمر في عقائدها لا سيما هذه العقيدة فقال: "راحت البوذية تتطور في شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت، لا ينافسها في ذلك سوى أوربا في أوائل عصورها الوسطى: ولا يزال "دالاي لاما" (الكاهن الشامل لكل شيء) الذي اختفى في دير بوتالا العظيم الذي يطل على مدينة لهاسا، موضع عقيدة أهل التبت، بما تنطوي عليه نفوسهم من السذاجة الطيبة، بأنه تجسيد حي "لبواذا المستقبل" (بوذا المنتظر)"[36]

ومن خلال هذا التطور ذهبت البوذية إلى رجعة ثانية إلى الأرض ليعيد السلام والبركة إليها.[37] في تشابه كبير بينها وبين الديانات السماوية التي تقول بعودة المسيح ثانية إلى الأرض، ويقولون "إنه في الأيام الأخيرة يأتي .. وأن المقصود من مجيئه إلى هذا العالم هو إعادة النظام والسعادة إلى هذه الدنيا"[38].

4. الزاردشتية:

تؤمن الزرادشتية أن للكون إله واحدا هو: أهورامزدا الإله الذي ينسب إليه كل خير ولا تنسب إليه الشرور، في مقابل: أهرمان؛ الذي ينسب إليه الزرادشتيون كل شر في العالم، وعلى الرغم من الثنائية المقررة ههنا بين إرادتين: إرادة الخير وإرادة الشر؛ إلا أن الزاردشتية لا تعتقد إلا بإله واحد.[39]

وحول فكرة تغلب إرادة الخير على إرادة الشر تدور عقيدة مجيء من ينتصر على أهرمان في آخر الزمان وهو المخلّص.

عند الزرادشتيين تدوم الدنيا اثني عشر ألف سنة وهذا ينقسم إلى أدوار أقصر، كل منها ثلاثة آلاف سنة، والدور الأول هو دور العصر الذهبي السعيد وفيه يسيطر أهورامزدا على الأرض ويشيع الخير، .. أما الدور الثاني فهو الدور الذي تسود فيه الظلمة على الأرض وتحل بالأرض كارثة كبيرة، .. أما الدور الثالث فهو الدور الذي تقوم فيه معارك كبيرة بين قوى الخير وقوى الشر لكن الحرب بينهما سجال وغير حاسمة إلى أن جاء زرادشت وبمجيئه بدأ الدور الرابع، وفي هذا الدور يستمر النزاع والصراع بين قوى الخير والشر، ولكن بشائر النصر بدت قريبة، ولاحت في الأفق علامات تمهيدا لظهور سا أوشيانت (saoshyany) المبارك الطلعة مسيح الزرادشتيين الذي يتم في عهده انتصار الخير على الشر في الأرض.[40]

ويعتقد الزرادشتيون بأنه سيخرج من صلب زرادشت في فترات مختلفة ثلاثة من النبيين ينشرون تعاليمه في أطراف العالم، ويحل يوم الحساب الأخير، وتقوم مملكة أهورامزدا ويهلك أهرمان، وجميع قوى الشر هلاكا لا قيام لها بعده، ويومئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة طيبة جديدة في عالم خال من الشرور والظلام والآلام.[41]

أما عن الذي سيقوم بهذه الحرب المصيرية والأخيرة فإنهم يؤمنون بفكرة ظهور من ينشر العدل "أشيزريكا" أي الرجل العالم.[42]

يقول الشهرستاني: "ومما أخبر به زرادشت في كتاب زند أوستا أنه قال: سيظهر في آخر الزمان رجل اسمه "أشيزريكا"، ومعناه: الرجل العالم يزين العالم بالدين، والعدل، ثم يظهر في زمانه "بتياره"، فيوقع الآفة في أمره، وملكه عشرين سنة، ثم يظهر بعد ذلك أشيزريكا على أهل العالم، ويحي العدل، ويميت الجور، ويرد السنن المغيرة إلى أوضاعها الأول، وتنقاد له الملوك، وتتيسر، وينصر الدين والحق، ويحصل في زمانه الأمن والدعة، وسكون الفتن، وزوال المحن"[43]

خاتمة:

من خلال ما تم التطرق إليه في هذا البحث، والذي تناول عقيدة محورية في كثير من الديانات، إن لم نقل أنه لم تخل ديانة منها، يمكننا أن نخلص إلى مجموعة من النتائج تتعلق بعقيدة المخلّص في الديانات الوضعية القديمة، وهي:

- احتوت الديانات الوضعية القديمة التي تطرقنا إليها، على هذه العقيدة، وهو ما يشير إلى قدم الاعتقاد بها، وأنها لم تقتصر على الديانات السماوية فقط، بل إن بعض الباحثين يرون أن ديانة مثل اليهودية اقتبست هذه العقيدة من الديانات التي سبقتها، وإن كنا لا نسلم بهذا الرأي، لكن المتفق عليه أن الاعتقاد في المخلص قديم جدا.

- ينقسم الخلاص في الديانات الهندية (الهندوسية، البوذية) إلى خلاص فردي يصل إلى النرفانا والتوحد في الإله، وإلى خلاص جماعي يحققه المنقذ المنتظر، سواء كان متمثلا في عودة شخصية سابقة، أو ظهور شخصية جديدة تتولى الخلاص الجماعي.

- احتوت الهندوسية على كثير من الأفكار المتضاربة حول هذه العقيدة والمتقاطعة في كثير من الأحيان مع معتقدات ظهرت بعدها، مما جعل بعض الباحثين يرون أن مرد ذلك إلى تسامح كبير في الهندوسية في تقبل معتقدات أخرى وإدراجها في نصوصها المقدسة.

- ارتبطت عقيدة الخلاص في الديانات جميعا، بالمآسي التي عانتها الأمم، وكانت هذه العقيدة تقوى كلما تعرضت أمّة ما إلى غزو، أو اضطهاد، أو فساد. فكان التطلع إلى ظهور المخلّص عامل تثبيت، وأملا تعيش عليه الشعوب.

- لم يخل التاريخ القديم من استغلال هذه العقيدة استغلالا سياسيا، جعلها تعطي الشعوب قدرة على تقبل من يسوّق له على أنه المنتظر الموعود. وبغض النظر عن التفسيرات التاريخية لبعض الأحداث، فإن هذه العقيدة اختلطت بالجانب السياسي وامتزجت به كثيرا.

وفي الختام آمل أن أكون قد وفقت إلى معالجة جانب من هذا الموضوع الهام، والذي لا يزال يسيل الكثير من الحبر، ويلقي بظلاله على الحياة الدينية والسياسية حتى اليوم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. محمد الناصر صديقي، فكرة المخلص بحث في الفكر المهدوي، دار جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 2012.

2. فؤاد محمد شبل، دور مصر في تكوين الحضارة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، د ط 1971.

3. فالح مهدي، البحث عن منقذ دراسة مقارنة بين ثماني ديانات، دار ابن رشد، بيروت، لبنان، ط1 1981.

4. إبراهيم نصحي، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، د ط 1959.

5. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النضة المصرية، القاهرة، مصر، ط11 2000.

6. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ، مكتبة الرشد ناشرون، السعودية، ط2 1424 هـ، 2003م.

7. محمد بن طاهر التنير البيروتي، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، د ط ت.

8. جون كولر، كامل يوسف حسين، إمام عبد الفتاح إمام، الفكر الشرقي القديم، منشورات عالم المعرفة، الكويت، د ط 1995.

9. جفري بارندر، إمام عبد الفتاح إمام، عبد الغفار مكاوي، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، منشورات عالم المعرفة، د ط 1993.

10. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، إدوار بروي، رولان موسنيه، أرنست لابروس، روبير شنيرب، إشراف: موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2 1986.

11. علي بن صالح بن محمد المقوشي، المسيح المنتظر بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى، رسالة دكتوراه إشراف الأستاذ الدكتور: محمود محمد مزروعة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1423 هـ.

12. ول وايرل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

13. غوستاف لوبون، حضارات الهند، ترجمة: عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة مصر، ط1 2009.

14. مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط3، 1418 هـ.

15. الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، منشورات حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية الحادية والعشرون، الرسالة الستون بعد المائة، 1422 هـ 2001م.

16. أسعد السحمراني، الصابئة – الزرادشتية – اليزيدية، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1 1997.

17. الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط6 1997.

18. مروفل كلثوم، فلسفة الخلاص في المشروع البوذي، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 2، العدد 1، 2010/03/10.

الهوامش:

[1] محمد الناصر صديقي، فكرة المخلص بحث في الفكر المهدوي، دار جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 2012، ص 183.

[2] فؤاد محمد شبل، دور مصر في تكوين الحضارة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، د ط 1971، ص 19، 20.

[3] المرجع نفسه، ص 21.

[4] سامي سعيد الأحمد، محاضرات في التاريخ القديم على طلاب الصف الثاني في كلية الآداب قسم التاريخ، ص 16، نقلا عن فالح مهدي، البحث عن منقذ دراسة مقارنة بين ثماني ديانات، دار ابن رشد، بيروت، لبنان، ط1 1981، ص 14.

[5] فالح مهدي، البحث عن منقذ، ص 13 إلى 15.

[6] المرجع نفسه، ص 18، 19.

[7] محمد الناصر صديقي، فكرة المخلص بحث في الفكر المهدوي، ص 44.

[8] لمزيد من التوسع حول هذه الروايات انظر، فالح مهدي، البحث عن منقذ، ص 30 وما بعدها، ومحمد الناصر صديقي، فكرة المخلص بحث في الفكر المهدوي، ص 44 وما بعدها، إبراهيم نصحي، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، د ط 1959، ص 64 وما بعدها.

[9] إبراهيم نصحي، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة، ص 49 .

[10] محمد الناصر صديقي، فكرة المخلص بحث في الفكر المهدوي، ص 45.

[11] إبراهيم نصحي، دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالمة، ص 60.

[12] المرجع نفسه، ص 61.

[13] المرجع نفسه، ص 53، 54.

[14] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النضة المصرية، القاهرة، مصر، ط11 2000، ص 61.

[15] محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند ، مكتبة الرشد ناشرون، السعودية، ط2 1424 هـ، 2003م، ص 630، 631.

[16] المرجع نفسه، ص 633.

[17] انظر فالح مهدي، البحث عن منقذ دراسة مقارنة بين ثماني ديانات، ص 58، و محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص 614.

[18] محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص 615.

[19] للتوسع أكثر ينظر محمد بن طاهر التنير البيروتي، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، د ط ت، ص 54 وما بعدها

[20] جون كولر، كامل يوسف حسين، إمام عبد الفتاح إمام، الفكر الشرقي القديم، منشورات عالم المعرفة، الكويت، د ط 1995، ص 145، 147.

[21] محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص 713.

[22] ينظر المرجع نفسه، ص 714 إلى 716.

[23] المرجع نفسه، ص 716.

[24] المرجع نفسه، ص 730.

[25] أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص 32، 33.

[26] محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص 703 إلى 709.

[27] المرجع نفسه، ص 105، 106.

[28] المرجع نفسه، ص 104.

[29] انظر جون كولر، كامل يوسف حسين، إمام عبد الفتاح إمام، الفكر الشرقي القديم، ص 109، 110.

[30] انظر جفري بارندر، إمام عبد الفتاح إمام، عبد الغفار مكاوي، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، منشورات عالم المعرفة، د ط 1993، ص 179.

[31] محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص 155.

[32] أندريه إيمار، جانين أوبوايه، إدوار بروي، رولان موسنيه، أرنست لابروس، روبير شنيرب، إشراف: موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2 1986، ج627/1.

[33] علي زيعور، الفلسفات الهندية ص 230، نقلا عن علي بن صالح بن محمد المقوشي، المسيح المنتظر بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى، رسالة دكتوراه إشراف الأستاذ الدكتور: محمود محمد مزروعة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1423 هـ، ج1/ 191.

[34] ول وايرل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ج109/3.

[35] يذكر غوستاف لوبون أن الفرق الجديدة ترى أن هناك أكثر من بوذا سيعود، وبين كل واحد وآخر أحقاب لا تحصى، انظر، غوستاف لوبون، حضارات الهند، ترجمة: عادل زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة مصر، ط1 2009. ص 360.

[36] المصدر نفسه، ج201،202/3.

[37] انظر، مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط3، 1418 هـ، ج769/2.

[38] محمد بن طاهر التنير البيروتي، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ص 167 .

[39] انظر، الشفيع الماحي أحمد، زرادشت والزرادشتية، منشورات حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية الحادية والعشرون، الرسالة الستون بعد المائة، 1422 هـ 2001م، ص 38 وما بعدها.

[40] فالح مهدي، البحث عن منقذ دراسة مقارنة بين ثماني ديانات، ص 82، 83.

[41] ول ديورانت، قصة الحضارة، ج435/2.

[42] أسعد السحمراني، الصابئة – الزرادشتية – اليزيدية، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1 1997، ص 60، 61.

[43] الشهرستاني أبو الفتح تاج الدين عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط6 1997، ج284/1، 285.